شاب يثوب إلى رشده

" فقام وجاء إلى أبيه " (لوقا ١٠ : ٢٠)

القاها : لن برتون

تعريب الأخ واصف عبد الملك

أن غايتي هنا أن نتتبع سيرة شابنا الى بيته لنرى الترحاب الذي يقدمه اليه الاب الحب . لقد تركناه يبدأ الرحلة الى البيت ، وهذا عندي هو كسب نصف المعركة لأن الحصول على تأييد العقل ورضاه هو الخطوة الأولى ، واذا لم ينفذ يبق هذا الرضا بلا قيمة. عندما قام راجعا الى البيت ، لابد أنه مشي وحيدا في طريق موحش ، فهو يرى كل شيء مخالفا للطريق الذي ألفه حينما هام على وجهه في كورة بعيدة منذ وقت قليل . أو قل هي سنوات قليلة منذ خرج من البيت وفارق الأحباب والأصحاب .

وذلك الصبح الذي حول فيه نظره تجاه العالم كان مفتر الثغر وضاح الجبين . ويا للمناظر الخلابة المغرية التي انبسطت أمامه في الفضاء الواسع! فهناك السهول الجميلة، وقمم الجبال يرتد عنها البصر حسيرا ، وتلك الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء ، تضمخ الوادي بيانع الزهر وشذا العطر ، والوديان المنبسطة تمر عليها أصابع النسيم العليل فتتماوج حقول الحنطة فتبدو كأنها بساط من السندس الأخضر ، والجداول الضحوكة تنساب مترقرقة فوق أرض من التبر فما أجمل المنظر ! وما أسعد البداية

. أجل ، لقد تبدلت الأمور في وقت قصير، فتلك الآمال التي كانت تطاول السحاب والأماني التي تنافس الجوزاء علوا ، استحالت براكين تقذف حمما ونارا ، تثور بلهيبها وشظاياها مخربة قصور آماله منغصة عليه عيشه . وتلك الحقول الذهبية المتماوجة اضحت قفرا ببابا لا يطلع فيه الا الشوك والحسك ، وتلكم الجداول الضاحكة سارت بركة آسنة من المياه العفنة تسرح فيها جراثيم الآمال المحطمة وتعيش فيها مكروبات الفرص الضائعة . واخيبتاه ! فهذه الحالة عينها يصورها لنا ملتون، في ديوان شعره «شمشون» في بيت من الشعر الخالد على لسان الرسول الذي جاء بنبأ نكبة «غزة» اذ يقول:

"اين المفر وأين المناص ؟ أن هذا المشهد الرهيب الذي رأته عيني منذ وقت لا يزال يتعقباني بالرعب والفزع فلا أستطيع منه هروبا." كما يفيض الداعر الأثيم من طلسم غوايته ونجاسته فتقف أمامه اشباح الجحيم وأرواح الظلمة وتفتح أمامه ما كان مطويا من سفر ماضيه الذميم ، هكذا هذا الضال يضرب في السير وسط طريق موحش بقلب ثقيل وضمير معذب . انظر اليه ، فقد كان يطوي على الطوي والهزال تمكن من جسمه الناحل فلا زاد ولا ثياب ولا أصحاب يمشي وحيدا متعثرا في خطواته نحو أبيه.

ايها الشبان ، هذا انذار ، وتلك هي ثمرة الخطية . فكفوا الآن قبل أن تأتي أيام الشر وتجيء السنون . اننا نراه ثانيا في البيت هنالك واقفا على ذات البقعة التي كانت فيما مضي مراحاً للعبه في أيام الطفولة ، وقد تغيرت الأشياء عما كان يرى سابقا ، حتى ليصدق القول أن الأشياء تبدو أنها تغيرت تغييرا محسوسا اذا كنا بعيدين عنها . أتذكر أني زرت جدتي منذ بضع سنين بعد أن غبت عنها مدة طويلة ، وكنت أتطلع الى زيارتها بشوق ، فخرجت من مدينة (راليغ) في عصاري يوم جميل ،، وشددت على حصاني الأصيل . لكن كانت المسافة تبدو لي أنها طويلة ، وخيل الى اني لن أصل إلى هناك . أخيرا جئت الى أطراف البلد،

وشرعت أسأل عن الطريق لأن الأشياء تغيرت : منازل جديدة ، وشوارع وطرقات جديدة ... حتى كدت أصل الطريق ، وما أعظم التغيير الذي رأيت؟ فالبيت ذهب رونقه وتهدمت حيطانه ، والزهور ماتت ، ومعظم أشجار البطم المجاورة للمنزل قطعت . كل شيء تغير ، لكن لم أحس عظم التغيير حتى رأيت جدتي التي تقوس ظهرها ،، وانطفأ بريق عينيها ، وارتعشت نبرات صوتها - اذ كانت تنيف على التسعين - فأيقنت أن حياتنا مليئة بالتغيير . فاليوم نكون أطفالا وغدا شيوخا . اذن يمكننا أن نتصور أن شابنا حينما وقف يلقي بنظره الى ما حوله راي التغيير المحسوس المؤلم كل ما كان حوله . البقعة ذاتهاء والأشجار والمنزل والحديقة .. حتى كاد يظن أن ذلك البيت ليس بيتهم . وأيضا التغيير الذي حل بوالده ، فالشيب قد خط رأسه ، والهموم والأفكار التي كانت تساوره الا لفراق ولده .. كل هذه كانت تملأ قلبه الماً.

ومع هذا فكأني به يشعر بسعادة اذ رجع الى البيت وانتهت كل عوامل الخوف من نفسه . رآه فركض ووقع على عنقه وقبله . لا أدري كيف عرفه الآب من على بعد حتى ركض اليه ، ولكن شيئا مميزا لابد جعله يعرفه ، كمشيته مثلا أو صوته . هذه غريزة مدهشة في الوالدين تجعلهم يعرفون ذويهم . ففي تلك الرحلة التي زرت فيها جدتي أردت أن أمتحنها ، فتظاهرت بأني أسوق حصاني لأتجاوز دارها والكلاب تنبح . فغيرت صوتي ، وناديت ، فخرجت الخادمة ثم سألتها بصوت غيرت نبراته : هل مسز فرانكس تسكن هنا ؟ واذا بي أسمع جدتي تتكلم من داخل الدار قائلة : عرفتك يا خبيث ، وهل تضحك على جدتك ؟ أنا عرفتك ، أنزل عن الحصان وادخل. ثم خرجت وقالت : الله يباركك يا لن يا ولدي العزيز . ولا أستطيع أن أصف ما حدث ، ولكن يكفي أن أقول انه كان لمحة مما سيكون حينما أراها في قصرها السماوي وتخرج للقائي في المجد.

فيا للسرور الذي ملأ قلب الأب في ذلك اليوم .. يا أولادي ، لا اتطيلوا البعد عن البيت لأنكم سوف تندمون على ذلك في يوم ما اذ هنالك قلوب تحنو عليكم ، ونفوس تود أن تموت عنكم . و أبدا لا ينسونكم بل يفكرون فيكم . فارجعوا إلى أوطانكم كلما كان في مقدوركم. واذا لم تتح لكم الفرصة فاكتبوا إلى ذويكم ، إلى والديكم ، الى أقربائكم ، وفرحوا قلوبهم الملآنة حبا نحوكم وعرفوهم أنكم باقون على عهدكم تبادلونهم المحبة وتحفظون لهم الذكريات الطيبة. واسمحوا لي أن أقص عليكم قصة ذكرها الدكتور هنسون من شيكاغو:

ذلك أنه كان في طريقه ليلقى عظة افتتاح كلية " ويك فورست " نورث كارولينا ، وبينما هو يمر في بلدة ولدون رأى رجلا يجلس على الكرسي المقابل له في القطار، كان الرجل تظهر على محياه الخشونة وعلى ملامحه الأسي والحزن ، فسأله الدكتور : هل يمكنني أن أقدم لك خدمة يا صديقي ؟ فرد الرجل بخشونة ، لا . لا .عرض عليه المعونة مرات فرفض قائلا : لا يوجد من يهتم بي ، أنجز الدكتور ماموريته ، وبينما هو راجع رأى نفس هذا الرجل يركب القطار من محطة صغيرة، ولكن القلق كان مستحوذا عليه اكثر من ذي قبل فلما طفق الدكتور يحادثه انفرجت أسارير وجهه وتعزى أن آدميا يريد أن يفتح الحديث معه ، فابتدا يقص للدكتور قصته . قال:

يا سيدي ، انا محطم . آه ! اني تهدمت ا وانت ترى اني شيخ قد تخطيت السبعين لما كنت صبيا هربت من بيت ابي . وكانت لي ام صالحة . صحيح اني شعرت بالوحشة في البداية و كنت اتذكرها دائماء ولكن بمرور الوقت صرت لا اتذكرها . لم احرر لها خطابا قط ولم تعرف مكان وجودي . ومنذ وقت ابتدات افتكرها وحن قلبي اليها نعم ، لم اكن اتوقع ان تكون باقية على قيد الحياة ، ولكن ذكراها ظلت تقضي على مضجعي ، فصممت على أن اسافر من بلدي في الولايات الغربية الى

نورث كارولينا لابحث هل يمكن الاهتداء اليها . ذهبت الى الاماكن المجاورة وسالت عنها ولكن واحدا من جيرانها لم يعرفها. اخيراً وجدت رجلا عجوزا تذكرها ، ولكنه لم يعرف اين دفنت . ثم خطر على بالي الكنيسة القديمة التي كانت مواظبة عليها وكنت ارافقها اليها في ايام طفولتي و ذهبت إلى الكنيسة، ولكن عوامل البلى كانت ظاهرة عليها . دخلت وكانت ارضها مبلطة بقوالب من الطوب الأحمر ، فأمكنني ان اهتدى الى المكان الذي اعتادت أن تجلس فيه. هناك البقعة التي كانت تضع قدميها عليها ، فركعت في ذات المكان : ولا اخبي عليك يا سيدى اني كنت اجهش في البكاء كما يجهش الطفل ، آه لو كان في قدرة البكاء آن بردها ثانية الى الحياة ! والآن يا صديقي انت ترى هذه اللفة في بلدي احتفظ بها وآخذها معي الى بيتي ، وماهي الا قالب القلوب الذي كانت تضع قدميها عليه، وهو كل ما امكني ان احفظ من ذكرياتها ، وها انا اخده معى ليكون وسادة تستريح عليها راسي عندما ادفن في قبري تلك قصة تقطع نياط القلب وتحز في التنفس لصورة ذلك الشيخ العجوز فيا أصدقائي الشبان ، ارجو الا تهملوا ذويكم الطاعنين في السن ، بل اخدموهم كلما مرت السنون .. ما اجمل ذكريات الام التي طواها الموت!

ثالثا اريد ان اوجه التفات الشبان الأعزاء الى حقيقة ، وهي ان ترحاب الأب بالابن الضال له معنى اعمق من الصلة العائلية ، ومن ثم يتضح لنا الشرود في كل مناحي الحياة ، والقصد الرئيسي هو أن يرينا بعد الخاطي من الله والملابسات التي تحيط باحوال رجوعه والنعمة الدافقة من قلب الأب في قبوله.

(1) نرى في هذا الشاب عدم ايمانه ، وان كل من يهمل قول الرب يسوع هو ابن ضال.

(2) لنا في صورة حياته طبيعة الخطية التي تقود الانسان شيئاً فشيئاً إلى الخراب ، واعدة إياه بكل شيء بينما تسلب منه كل شيء.

(3) لنا ايضا في احتياجه عدم الكفاية في حياة الخطية، وان كل الذات لا تستطيع أن تقنع القلب.

(4) في رجوعه الى البيت وقبوله تتضح لنا طبيعة الله المسامحة . فيا أيها الصديق الذي لم تقبل الايمان بالمسيح، هلم اقبل الى ابيك السماوي المحب . لا تمكث طويلا في الخطية ؟ ارجع الآن الي بيت الأب . اتسالني كيف ترجع ؟ الجواب بسيط : كما رجع الابن الضال . قال اقوم واذهب ، فقام ورجع . وها يسوع واقف ليمد اليك يد الترحاب.

منذ سنين سمعت واعظا مشهورا يوضح طريق التوبة والايمان. كنت واقفا بالقرب من باب الخيمة لأني لم اجد مقعدا من شدة الزحام. فبغتة وقف الواعظ ونزل من على المنبر وابتدا يمشي في الطرقة الوسطى وهو يقول في كل خطوة : أنا ذاهب الى جهنم ! أنا ذاهب الى جهنم ! فقلت في نفسي انا اصدق ذلك ، وحالا رجع على عقبه و قفل راجها من حيث اتي ، وابتدا يقول في كل خطوة انا ذاهب الى السماء ! انا ذاهب إلى السماء ! ثم ارتقى المنبر والتفت الى الجمع الحاشد وقال : هذا هو معنى التوبة والايمان. منذ برهة قصيرة كنت تسير في عصيانك وخطيتك، فكنت تسير في طريق جهنم . رجعت ونظرت الى الله وبدات تمشي في طريق الايمان ، فهذه هي التوبة والايمان معا . لذا فاني اناشدك أن ترجع عن طريقك وتتحول نحو الله لأنه يوجد خلاص لكل من يريد. وحذار ايها الشباب من أن يغرر بك الشيطان وأنت تسعى الى الحرية ليصفد نفسك في اغلال العبودية وقيود العادات الأثيمة ، ولتعلم أنك في طور الشباب تشكل مصيرك. فاديسون اشتهر باختراعاته عند ما ناهز الثالثة والعشرين ، وباكون اعتلى منصة البرلمان لما بلغ الثالثة والعشرين . فلما بلغ السادسة والعشرين كان من زعماء البرلمان، وشكسبير ترك

المدرسة في الرابعة عشرة ومن ثم وهب العالم تلك العبقرية الفذة في رواياته الخالدة ، وسكوت عقد له لواء البلاغة في عالم الأدب لما بلغ الخامسة

والعشرين ، ووليم أورانج قاد الجيش إلى حدود فرنسا في الثانية والعشرين ونابليون قاد الجيش في ايطاليا في السابعة والعشرين وهاملتون بدأ حياته العامة في السابعة عشرة فلما بلغ السابعة والعشرين كان من ابرز المحامين واقدر السياسيين في عصره. اريد ان الفت نظرك ايها الشاب الى نقطة مهمة ، وهي أن الحياة التي تحسب بحق هي تلك التي تمجد الله وتعمل لخير الناس . ان الملذات لا تدوم ، والمال لا يبقى طويلا ، ولكن خدمة الله تزداد اشراقا ويزيد نورها كلما مرت السنون.

كانت باخرة تمخر عباب البحر ، وكان على ظهرها شاب متمنطق بحزام مملوء بالجواهر الثمينة التي جمعها في رحلاته ، وبينما السفينة سائرة أذا بالمرجل قد انفجر فابتدأت تفرق ، وابتدا المسافرون ايقفزون إلى البحر الغاضب وعليهم أطواق النجاة . وبينما هذا الشاب على وشك القفز دنت منه بنت صغيرة وقالت : هل لك أن تنقذني ؟ تأمل الشاب قليلا ثم نزع الحزام المملوء بالجواهر ورماه على ظهر السفينة وأخذ البنت في ذراعيه وقفز لنجاتهما . كانت كل موجة تدفعهما إلى أن وصلا الى الشاطيء ، فعلت أصوات الفرح من الأصدقاء لنجاتهما .

أيها الشبان ، هذا هو حالكم بالتمام. انتم راكبون في سفينة مقبلة على الغرق ، وفترة الشباب تتسرب من بين ايديكم . وها يمتد امامكم بحر الحياة الواسع الأطراف . وقوتان كبيرتان نتنازعانكم السيادة : قوة الملذات والغني ، وقوة الأبدية والسعادة . ونفوسكم تصرخ صرخات الاستغاثة والنجدة لأن أمواج الخطية تضرب سفينة حياتكم ، فيجب أن تبتوا في أمركم ولا تصموا آذانكم عن نداءات الحياة . هيا حلوا عنكم مناطق الملذات واحزمة المطامع الكاذبة لأن مصارعكم تحت بروقها، وتمنطقوا بحزام النجاة - الرب يسوع المسيح - وارتموا على ذراعه القوية فيهبكم حماه ونجاة . فاذا ما ثارت العواصف وقامت الرياح فانكم سترسون اخيرا على بر الأمان، ويتوجكم الله بالمجد الأبدي والكرامة والسعادة . حيث يلاقيكم احباؤكم ويمدون لكم يد الترحاب، وتفرح بكم الملائكة. ويتوجكم الله بالمجد الأبدي والكرامة والسعادة.